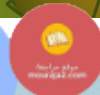




أم سند وأم هند

كامل كيلاني





أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ





أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

تأليف
كامل كيلاني



أمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

كامل كيلاني

رقم إيداع ١٦٨٣٠ / ٢٠١٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠٢٦ ٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

رسم الغلاف: حنان بغداداي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	الفصلُ الأوَّلُ
١٣	الفصلُ الثَّانِي
١٩	الفصلُ الثَّالِثُ
٢٣	الفصلُ الرَّابِعُ
٢٩	الفصلُ الخَامِسُ
٣٩	خَاتِمَةُ القِصَّةِ
٤١	الخُطَّافُ



الفصل الأول

(١) استقبال الربيع

جاء أول أيام «أبريل/نيسان»، وكان — على الحقيقة — يوماً مُعتدِلَ الهواءِ صحوًا، أُعني:
أَنَّ سَمَاءَهُ صَافِيَةً خَالِيَةً مِنَ الْغَيْمِ.
وَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ؛ فَمَلَّتِ الْكُونُ بِنُورِهَا وَبَهَائِهَا (حُسْنِهَا)، وَسَخَّنَتْ بَرَاعِيمَ
الشَّجَرِ، أُعني: كِمَامَاتِ الزَّهْرِ، وَالْبَرَاعِيمُ هِيَ: زَهْرُ النَّبَاتِ قَبْلَ أَنْ يَتَفَتَّحَ.
وَأَيْقَظَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ الْحَشَرَاتِ النَّائِمَةَ فِي مَخَابِئِهَا؛ فَخَرَجَتْ تَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ،
وَتَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ (تَمْشِي عَلَيْهَا فِي مَشْيَةٍ بَطِيئَةٍ كَمَشْيَةِ الطُّفْلِ الصَّغِيرِ)، زَاحِفَةً، تَسْعَى
إِلَى رِزْقِهَا.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

(٢) شِجَارُ الصِّدِيقَتَيْنِ



وَأَمْتَلَأَ الْجَوُّ بِأَصْوَاتِ الْخَطَّاطِيفِ، بَعْدَ أَنْ أَنْتَمَّتْ رِحْلَتَهَا الطَّوِيلَةَ، وَعَادَتْ إِلَى وَطَنِهَا الْقَدِيمِ. وَجَاءَ خُطَّافَانِ، فَوَقَفَتَا عَلَى مَخْرَنِ غَلَالٍ قَدِيمٍ مَهْجُورٍ نَسَجَتِ الْعِنَاكِبُ بِيُوتَهَا فَوْقَ سَطْحِهِ. وَظَلَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَدَّعِي أَنْ الْعُشَّ مَلِكٌ لَهَا وَحَدَهَا. فَقَالَتْ «أُمُّ هِنْدٍ» — وَهِيَ، شَقْرَاءُ الرَّقَبَةِ، مُلْتَمِعَةٌ الرَّيْشِ: «لَيْسَ لِهَذَا الْعُشِّ مَنْ صَاحِبٍ غَيْرِي. فَقَدْ وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَبْلَكَ، وَلَا حَقَّ لَكَ فِيهِ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي، وَيَسْرُنِي أَنْ أَعِيشَ فِيهِ. وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى امْتِلَاكِهِ رَضِيَتْ أُمُّ أَبِيتٍ — فَهَلْ تَفْهَمِينَ؟»

الفصل الأول

(٣) زَوَّارَةُ الْهِنْدِ

فَصَاحَتْ صَدِيقَتُهَا «أُمُّ سِنْدٍ» قَائِلَةً: «شَدَّ مَا ظَلَمْتَنِي وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ — يَا «أُمَّ هِنْدٍ» —
وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ وَلَا مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تَغْتَصِبِي عُشِّي، بَغِيًّا وَعُدْوَانًا. أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّ ابْنَةَ عَمِّي
— الَّتِي كُنَّا نُلَقِّبُهَا بِـ «زَوَّارَةِ الْهِنْدِ» — قَدْ وَهَبَتْ لِي هَذَا الْعُشَّ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ فِي رِحْلَتِهَا
الْأَخِيرَةِ؟»

(٤) وَصِيَّةُ بِنْتِ الْعَمِّ

أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّهَا قَالَتْ لِي، قُبَيْلَ مَوْتِهَا: «لَيْسَ لِي أَوْلَادٌ يَرِثُونَ عُشِّي، مِنْ بَعْدِي. وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ؛
فَاتَّخِذِيهِ دَارَكَ (مَنْزِلَكَ)، مَتَى عُدْتِ إِلَى الْوَطَنِ الْعَزِيزِ. وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُغَيِّرِي الرَّيْشَ
الْقَدِيمَ الَّذِي فِي دَاخِلِهِ. وَسَتَرَيْنِ الْعُشَّ — بَعْدَ ذَلِكَ — وَفَقَّ مَا تُحِبِّينَ.»

(٥) عِنَادٌ وَخِصَامٌ

فَرَفَعَتْ «أُمَّ هِنْدٍ» رَأْسَهَا، وَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا «أُمَّ سِنْدٍ»، وَهِيَ مُهْتَاجَةٌ غَضَبِي (ثَائِرَةٌ
غَاضِبَةٌ): «لَيْسَ لِهَذِهِ الْحُجَجِ أَقْلٌ قِيَمَةٌ عِنْدِي. وَلَنْ أُتْرِكَ هَذَا الْعُشَّ؛ فَهُوَ مَلِكٌ لِي — كَمَا
قُلْتُ لَكَ — وَقَدْ بَلَغْتُهُ قَبْلَكَ. فَكُفِّي عَنْ هَذِهِ التَّرْتُّرَةِ الْعَابِثَةِ (الْكَلَامِ الْهَازِلِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا
فَائِدَةَ فِيهِ).»

وَتَمَادَتْ «أُمَّ هِنْدٍ» الصَّغِيرَةُ فِي عِنَادِهَا، وَفَتَحَتْ جَنَاحَيْهَا لِتَمَلَّأَ الْعُشَّ، فَلَا تَدْعُ فِيهِ
مَكَانًا لِصَاحِبَتِهَا. وَظَلَّتْ تَدُلُّ رِيَشَهَا (تَفْرُكُهَا)، غَيْرَ مُلْتَفِتَةٍ إِلَى عِتَابِ «أُمَّ سِنْدٍ». فَاقْتَرَبَتْ
«أُمَّ سِنْدٍ» مِنَ الْعُشِّ، وَوَقَفَتْ عَلَى بَابِهِ، تُحَاوِلُ الدُّخُولَ قَسْرًا (غَضَبًا مِنْ
غَيْرِ مُوَافَقَتِهَا وَرِضَاهَا)، وَتَقُولُ: «كُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي آخِذَةٌ مِنْكَ هَذَا الْعُشَّ، رَضِيَتْ أُمَّ
أَبِيَّتِ، وَأَنْنِي لَنْ أُتْرِكَ لَكَ أَبَدًا!»

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

(٦) عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ

وَأِنَّهُمَا لَتَتَشَاجِرَانِ - وَقَدْ اشْتَدَّ لِحَاجَهُمَا (زَادَ عِنَادُهُمَا وَتَمَادِيَهُمَا فِي الْخُصُومَةِ) - إِذْ جَاءَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: وَهُوَ خُطَّافٌ مُهَذَّبٌ الطَّبَعِ، جَمِيلُ الشَّكْلِ، كَثِيرُ التَّبَصُّرِ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

فَسَأَلَ زَوْجَهُ «أُمُّ سِنْدٍ»: «مَاذَا حَدَّثَ، يَا عَزِيزَتِي؟»
فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»، وَهِيَ غَضْبَى ثَائِرَةٌ: «إِنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» قَدْ اغْتَصَبَتْ عُنِّي (أَخَذَتْهُ قَهْرًا وَظُلْمًا). وَهُوَ عُنُّ ابْنَةِ عَمِّي «زَوَّارَةُ الْهِنْدِ»، وَقَدْ وَهَبَتْهُ لِي (أَعْطَتْنِي إِيَّاهُ بِلَا مُقَابِلِ) كَمَا تَعْلَمُ. وَقَدْ أَصْرَتْ «أُمَّ هِنْدٍ» عَلَى عِنَادِهَا، وَأَمَعَنْتُ فِي لِحَاجِهَا (أَسْرَفْتُ فِي خُصُومَتِهَا). فَرَأَيْتُ أَنَّ أَعَاقِبَ تِلْكَ الْمُعْتَدِيَةِ الْمُغْتَصِبَةِ، وَ...» فَقَاطَعْتُهَا «أُمَّ هِنْدٍ» قَائِلَةً: «لَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى الْعُنِّ قَبْلَكَ، وَلَنْ أَبْرَحَهُ (لَنْ أَتْرُكَهُ) عَلَى أَيِّ حَالٍ. وَسَتَرَيْنِ مَاذَا يَحِيقُ بِكَ مِنَ النِّكَالِ (مَا يُحِيطُ بِكَ مِنَ الْعَذَابِ)، حِينَ يَجِيءُ زَوْجِي: «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ».

(٧) صَاحِبُ الْعُنِّ

فَصَاحَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» قَائِلًا: «الرَّأْيِي عِنْدِي أَنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» عَلَى حَقٍّ فِيمَا تَدَّعِيهِ (فِيمَا تَزْعُمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَهَا)؛ فَقَدْ سَمِعْتُ - مُنْذُ نَشَأْتِي - أَنَّ الْعُنَّ يُصْبِحُ مِلْكًا لِأَوَّلِ مَنْ يَحُلُّ فِيهِ. وَلَسْتُ - يَا زَوْجِي - مُحِقَّةٌ فِيمَا تَزْعُمِينَهُ. وَلَنْ تَضِيقَ بِنَا الْأَرْضُ الرَّحِيْبَةَ (الْوَاسِعَةَ). وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِنَا (لَا يَحِقُّ لَنَا) أَنْ نَخْتَصِمَ فِي سَبِيلِ عُنٍّ. فَهَلْمِي (تَعَالِي) - يَا «أُمَّ سِنْدٍ» - نَبْحْتُ عَنْ عُنٍّ غَيْرِهِ، فِي مَكَانٍ آخَرَ.»

(٨) مَشِيئَةُ الزَّوْجِ

وَلَمْ يُعْجَبْ «أُمَّ سِنْدٍ» رَأْيِي زَوْجِهَا. وَلَكِنَّهَا - إِلَى ذَلِكَ - لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَخَالَفَ نَصِيحَتَهُ وَشُورَاهُ (مَشُورَتَهُ)، وَلَا أَنْ تَعْصِيَهُ فِيمَا نَصَحَهَا بِهِ وَارْتَاهُ (رَأَاهُ). فَبَقِيَتْ مُتَفَجِّعَةً مُتَحَسِّرَةً، حَزِينَةً مُتَكَدِّرَةً؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الرَّغْبَةِ فِي امْتِلَاكِ الْعُنِّ وَالظَّفْرِ بِهِ. ثُمَّ أَدْعَنْتُ لِمَشِيئَةِ

الفصل الأول

زَوْجَهَا (خَضَعَتْ لِرَأْيِهِ)؛ فَفَتَحَتْ جَنَاحَيْهَا. – وَهِيَ مَحْزُونَةٌ الْقَلْبِ – وَطَارَتْ فِي الْهَوَاءِ،
لِتَلْحَقَ بِزَوْجِهَا، الَّذِي سَبَقَهَا؛ حَتَّى أَدْرَكَتَهُ.



الفصل الثاني

(١) في أجواز الفضاء

وَكَاثَا يَطِيرَانِ فِي خِفَّةٍ وَهُدُوءٍ؛ فَيُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا مُسْتَقَرَّانِ حَيْثُ هُمَا (تَابِتَانِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَا فِيهِ)، وَأَنَّ الْهَوَاءَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ. وَكَانَا يَطِيرَانِ فِي خُطُوطٍ مُنْحَنِيَّةٍ بَدِيعَةٍ — عَلَى عَادَةِ الْخُطَّافِ فِي طَيْرَانِهِ — وَيَتَنَاقِضَانِ (يَتَحَدَّثُ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَا يُعْجِبُ الْآخَرَ وَيُسْرُهُ) فِي لُطْفٍ، وَيَقْبِضَانِ عَلَى مَا يُصَادِفَانِهِ فِي الْجَوِّ مِنَ الْحَشَرَاتِ الرَّاقِصَةِ فِي أَشْعَةِ الشَّمْسِ. حَتَّى إِذَا شَبِعَا، قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لِزَوْجِهِ «أُمَّ سِنْدٍ»: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ — يَا عَزِيزَتِي — أَنْ تَتَمَثَّلِي (تَتَصَوَّرِي) مِقْدَارَ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ، حِينَ أَهْتَدِي إِلَى وَكْرٍ (عُشٍّ) هَادِيٍّ جَمِيلٍ. انظُرِي صَوْبَ الْمَغْرِبِ، أَلَا تَرَيْنَ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْخَرِبَ؟ أَلَيْسَ هَذَا أَصْلَحَ مَكَانَ نَبْنِي فِيهِ عُشَّنَا، وَفَقَّ مَا نُرِيدُ؟»

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ



(٢) العُشُّ الجَدِيدُ

وَأَسْرَعَ الْخُطَّافَانِ فِي طَيْرَانِهِمَا، حَتَّى بَلَغَا تِلْكَ الْخَرِبَةَ؛ فَحَطَّآ عَلَى نَافِذَةِ مَهْجُورَةٍ قَدِيمَةٍ لَا زُجَاجَ بِهَا. وَجَتَّمَ الْخُطَّافَانِ عَلَى حَافَتِهَا (تَلَبَّدَا بِجَانِبَيْهَا) فَرِحَانَيْنِ، وَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «لَا جَرَمَ (حَقًّا) أَنَّ هَذَا أَصْلَحَ مَكَانٍ نَحْتَارُهُ، وَلَنْ يُكَدَّرَ صَفْوَنَا فِيهِ مُكَدَّرٌ. فَإِنَّ هَذِهِ الْغُرْفَةَ الْجَمِيلَةَ، هِيَ — كَمَا تَرَيْنَهَا — مَهْجُورَةٌ، وَأَرْضُهَا كَثِيرَةُ الثُّقُوبِ. وَإِنَّا بِهَا لَسَعِيدَانِ، مُسْتَرِيحَا الْقَلْبِ هَانِتَانِ (فَرِحَانَانِ).
وَسَيَكُونُ عُشُّنَا الْجَدِيدُ أَجْمَلَ مِنْ عُشِّ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَأَرْوَحَ (أَطْيَبَ)!»

الفصل الثاني

(٣) فَرَحُ «أُمِّ سِنْدٍ»

فَهَشَّتْ «أُمُّ سِنْدٍ» لِزَوْجِهَا وَبَشَتْ (ارْتَاَحَتْ وَنَشِطَتْ)، وَصَفَّقَتْ بِجَنَاحَيْهَا مُبْتَهَجَةً بِهَذَا الْمَكَانِ الْخَرِبِ. وَنَسِيَتْ كُلَّ مَا حَزَنَهَا مِنْ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَتَحَوَّلَ أَلْمَهَا أَنْسًا وَسُرُورًا، وَانْقَلَبَ تَرَحُّهَا فَرَحًا وَحُبُورًا. ثُمَّ قَالَتْ لِزَوْجِهَا رَاضِيَةً، قَرِيرَةَ الْعَيْنِ: «مَا أَبْعَدَ نَظْرَكَ، وَمَا أَعْظَمَ تَوْفُوقَكَ! فَإِنَّ أَوْلَادَنَا الصَّغَارَ لَنْ يَتَعَرَّضُوا لِلرِّيحِ، فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ الْهَادِئَةِ الْجَمِيلَةِ.»

(٤) غِنَاءُ الْخُطَّافَيْنِ

فَغَرَّدَ الْخُطَّافَانِ تَغْرِيدَةً عَذْبَةً مُسْتَمْلِحَةً (أَغْنِيَةً بَهِيجَةً)، بِصَوْتَيْهِمَا الرَّفِيقِ. وَغَنَى «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» فَرَحًا بِهَذَا الْفَوْزِ النَّادِرِ: «وَيْتٌ وَوَيْتٌ، وَوَيْتٌ وَوَيْتٌ هَذَا عَشِيٌّ، فِيهِ أَبَيْتٌ وَوَيْتٌ وَوَيْتٌ، غَنَّى غَنَّى لَنْ يَكْذِبَنِي — أَبَدًا — ظَنِّي.»

(٥) بِنَاءُ الْعُشِّ

ثُمَّ كَفَّ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» عَنْ غِنَائِهِ فَجَاءَ، وَوَقَفَ عَنِ التَّغْرِيدِ بَغْتَةً. وَعَنْتَ (خَطَرْتُ) لَهُ فِكْرَةَ طَارِئَةٍ، فَقَالَ «لَأُمِّ سِنْدٍ» زَوْجِهِ: «أَتَعْرِفِينَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَفَكَّرُ، يَا عَزِيزَتِي؟ إِنِّي لِأَفَكِّرُ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ السَّانِحَةِ (الَّتِي تَعْرِضُ لِي) فَهَلْ أَنْتِ بَادِئَةٌ بِبِنَاءِ الْعُشِّ الْآنَ؟ إِنَّ الْوَقْتَ صَحُوٌّ (خَالِيَةٌ سَمَاوُهُ مِنَ السُّحُبِ)، وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ، وَالْأَرْضُ جَافَةٌ، وَفِي قُدْرَتِنَا أَنْ نَبْدَأَ الْعَمَلَ الْآنَ. فَمَاذَا أَنْتِ قَائِلَةٌ؟»
فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ يَا عَزِيزِي، فَهَلُمَّ (تَعَالَ) إِلَى الْعَمَلِ!»

(٦) مَوَادُّ الْبِنَاءِ

ثُمَّ هَبَطَ الْخُطَّافَانِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمَلَأَ كِلَاهُمَا مِنْقَارَهُ تَرَابًا وَحَشَائِشَ، لِيَبْنِيَا الْعُشَّ. ثُمَّ قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لِزَوْجِهِ: «لَا يَفُوتَنَّكَ — يَا عَزِيزَتِي «أُمِّ سِنْدٍ» — أَنْ تُبْلِيَ هَذَا التُّرَابَ بِلُعَابِكَ (بِمَا يَسِيلُ مِنْ فَمِكَ) — كَمَا كَانَ يَصْنَعُ أَبَوَانَا حِينَ يَشْرَعَانِ فِي بِنَاءِ وَكُرَيْهِمَا (عُشِّيهِمَا) — فَلَنْ يَسْتَمْسِكَ الْبِنَاءُ بِغَيْرِ هَذَا.»

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ، يَا عَزِيزِي!»
ثُمَّ أَلْقِيَا مَا حَمَلَاهُ عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْخَشَبِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ بَرِيقَهُمَا.
وَلَقَدْ كَانَ عَمَلُهُمَا شَاقًّا مُضْنِيًّا، وَلَكِنْ مَا أُوتِيَهُ الْخُطَافُ — مِنَ الصَّبْرِ وَالْمُتَابَرَةِ —
هُوَ سِرٌّ نَجَاحِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُرْهَقَةِ (الْمُتْعَبَةِ).

(٧) مُتَابَرَةُ الْخُطَافَيْنِ

وَلَمَّا أَمْسِيًا، جَلَسَا يَسْمُرَانِ (يَتَحَدَّثَانِ لَيْلًا)، عَلَى الشُّرْفَةِ الْعُلْيَا مِنَ النَّافِذَةِ الْمَهْجُورَةِ،
وَيَتَمَنِّيَانِ الْأَمَانِيَّ الْجَمِيلَةَ، وَيَعْرِدَانِ (يُغْنِيَانِ) مَسْرُورَيْنِ، وَقَدْ شَعَرَا بِالسَّعَادَةِ تَمَلُّاً
قَلْبِيهِمَا، لِأَنَّهُمَا قَضَيَا نَهَارَهُمَا كُلَّهُ فِي الْعَمَلِ النَّافِعِ، وَلَمْ يَتْرُكَا لِحِظَةً بِلَا جَدْوَى (بِغَيْرِ
فَائِدَةٍ). وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا أَسْمَارٌ مُعْجَبَةٌ؛ فَتَحَدَّثَا عَنْ أَفْرَاحِهِمَا الْمَرْجُوءَةِ (أَبْنَائِهِمَا الَّتِي يُؤَمِّلَانِ
فِيهَا)، وَكَيْفَ يَتَعَهَّدَانِهَا بِالتَّنَشِئَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَأَيَّ الْأَسْمَاءِ الْجَمِيلَةِ يَخْتَارَانِ لَهَا؟
ثُمَّ أَسْلَمَا أَجْفَانَهُمَا الصَّغِيرَةَ لِلرُّقَادِ، وَرَاحَا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

(٨) يَوْمٌ مَا طُرُّ

وَلَمَّا بَدَأَ أَوَّلُ شُعَاعٍ مِنَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ، أَخْرَجَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» رَأْسَهَا مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهَا،
وَعَيْنَاهَا لَا تَزَالَانِ فَاتِرَتَيْنِ (سَاكِنَتَيْنِ) — مِنْ أَثَرِ النَّوْمِ — ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا «عُصْفُورَ
الْأَمَانَةِ»، وَهِيَ تَقُولُ: «مَا أَشَدَّ تَعَاسَتَنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ، أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ! لَقَدْ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ
طُولَ اللَّيْلِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِالْوَحْلِ. وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِنَا أَنْ نَعْمَلَ شَيْئًا طَوِيلًا يَوْمَنَا هَذَا.

(٩) فِرَاسَةُ الْخُطَافِ

وَلَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَتِي أَمْسٍ، حِينَ نَبَّهْتُكَ إِلَى الطَّيُورِ، وَهِيَ تَطِيرُ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ
الْأَرْضِ.»

الفصل الثاني

(١٠) أمطار الربيع

فَقَالَ لَهَا «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»، وَكَانَ — كَمَا قُلْنَا — آيَةً فِي الدَّمَائَةِ (غَايَةً فِي اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ) وَحُسْنِ الْخُلُقِ: «لَا عَلَيْكَ (لَنْ يُصِيبَكَ أَدَى)، يَا عَزِيزَتِي. فَلَنَسْتَرِحَ الْيَوْمَ إِذَا لَمْ يَكْفِ الْمَطَرُ عَنِ الْهَطُولِ. عَلَى أَنَّ السُّحْبَ سَتَنْقَشُ بَعْدَ قَلِيلٍ؛ فَإِنَّ أَمْطَارَ الرَّبِيعِ — فِيمَا حَدَّثْتَنِي أُمِّي — لَا تَلْبَثُ إِلَّا وَقْتًا يَسِيرًا.»

(١١) أيام الغيم

وَصَمَتَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «انظري يا عَزِيزَتِي. لَقَدْ خَفَّ الْمَطَرُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رَدَاذٌ (مَطَرٌ ضَعِيفٌ) يَنْحَدِرُ نَقْطًا رَفِيعَةً مُتَلَالِئَةً فِي الْفَضَاءِ. وَلَقَدْ طَالَ شَوْقُنَا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْأَخَازِ؛ فَإِنَّا — كَمَا تَعْلَمِينَ — قَدْ لَبِثْنَا فِي رِحْلَتِنَا زَمَانًا طَوِيلًا، دُونَ أَنْ نَنَعَمَ بِرُؤْيَةِ الْمَطَرِ، وَالسَّمَاءِ الْغَائِمَةِ، وَالسُّحْبِ الْكَثِيفَةِ (الْغَلِيظَةِ) الْمُلْبَدَةِ (الْمُلْتَصِقِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ).»

(١٢) انقطاع المطر

وَبَعْدَ قَلِيلٍ انْقَطَعَ الْمَطَرُ، وَصَحَّتْ فِرَاسَةُ «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ». فَاسْتَأْنَفَ — هُوَ وَزَوْجُهُ — عَمَلَهُمَا بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَأَقْبَلَا عَلَى عَشْمَا يَبْنِيَانِهِ جَادِّينَ. وَمَا زَالَا يُثَابِرَانِ عَلَى الْعَمَلِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً — مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ إِلَى الْمَسَاءِ — حَتَّى أَتَمَّا بِنَاءَ الْعُشِّ، وَفَقَّ مَا يُرِيدَانِ، وَأَتَتْهُمَا بِكَثِيرٍ مِنَ الْحَشَائِشِ وَرَيْشِ الطُّيُورِ.



الفصل الثالث

(١) أغاريدُ السُّرورِ

وَلَا تَسَلْ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ — عَن مِّقْدَارِ سُرُورِ «أُمِّ سِنْدٍ» وَابْتِهَاجِ زَوْجِهَا «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ»، حِينَ أَنْجَزَا عَمَلَهُمَا الشَّاقَّ. وَقَدْ أَنْسَاهُمَا الْفَوْزُ وَالنَّجَاحُ مَا عَانِيَاهُ فِي بِنَاءِ الْعُشِّ؛ فَظَلَّا يَطِيرَانِ حَوْلَهُ هَاتِفَيْنِ، وَيُحَلِّقَانِ صَائِحَيْنِ. وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِمَا الْفَرْحُ؛ فَرَدَّدَا أَغَارِيدَ الْغَبِطَةِ وَالسُّرُورِ.

(٢) اسْتِحْمَامُ الْخُطَّافَيْنِ

ثُمَّ ذَكَرَا أَنَّهُمَا جَدِيرَانِ بِالنَّظَافَةِ وَالْإِغْتِسَالِ؛ فَاسْرَعَا — عَلَى عَادَتِهِمَا كُلِّ يَوْمٍ — إِلَى غَدِيرِ صَافِي الْمَاءِ، فَاسْتَحَمَّا فِيهِ، وَعَمَرَا صَدْرَيْهِمَا فِي مَائِهِ فَرِحَاتَيْنِ، وَظَلَّا يُرْفِرِفَانِ بِأَجْنِحَتَيْهِمَا مُبْتَهَجَيْنِ. ثُمَّ طَارَا إِلَى سِلْكِ بَرْقِيٍّ، فَجَنَّمَا عَلَيْهِ، لِيَجْفَفَا جِسْمَيْهِمَا الْمُبَلَّلَيْنِ بِالْمَاءِ.

(٣) حُبُّ الْوَطَنِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ وَاجِبَهُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ. وَدَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «أُمِّ سِنْدٍ» شَتَّى الْأَحَادِيثِ وَالذِّكْرِيَّاتِ، فَقَالَ لَهَا فِيمَا قَالَ: «أَتَذْكُرِينَ — يَا «أُمِّ سِنْدٍ» — كَيْفَ كَانَتْ حَيَاتُنَا مُوحِشَةً كَثِيبَةً فِي غُرْبَتِنَا عَن وَطَنِنَا الْمَحْبُوبِ؟ وَكَيْفَ اشْتَدَّ حَنِينُنَا — فِي تِلْكَ الْهَجْرَةِ الْبَعِيدَةِ — إِلَى رُؤْيَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّمَتُّعِ بِالنَّظَرِ

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

إِلَى هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ الزَّرْقَاءِ؟ لَقَدْ وُلِدْنَا هُنَا - يَا «أُمُّ سِنْدٍ» - وَتَعَارَفْنَا جَمِيعًا فِي جَنَابَاتِ هَذِهِ الرَّحَابِ، وَامْتَلَأَتْ نُفُوسُنَا بِذِكْرِيَّاتِ هَذَا الْبَلَدِ الْحَبِيبِ الْيَنَانِ.
فَلَا عَجَبَ إِذَا اشْتَدَّ حَنِينُ قَلْبَيْنَا، وَهَفَّتْ إِلَيْهِ حَوَاطِرُ كِلَيْنَا.
فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ - أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ - فَإِنَّ حُبَّ الْوَطَنِ يَمْلَأُ قَلْبِي حَنِينًا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ أَرْوَحَ لِنَفْسِي مِنْ هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي نَشَأْتُ فِيهِ. وَلَيْسَ يَعْدِلُهُ فِي حُسْنِهِ بَلَدٌ آخَرُ، بَالِغًا مَا بَلَغَ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوَعَةِ وَالْبَهَاءِ. وَلَنْ تَسْتَطِيعَ بِلَادُ الدُّنْيَا قَاطِبَةً أَنْ تَسْلِينِي عَنْ هَذَا الْوَطَنِ الْحَبِيبِ، أَوْ تُذْهِلَنِي عَنْهُ (تُنْسِينِي إِلَيْهَا).»

(٤) ذِكْرِيَّاتُ الْهَجْرَةِ

وَمَا أَنْتَمُ «أُمُّ سِنْدٍ» قَوْلَهَا، حَتَّى هَاجَتْهَا (أَثَارَتْ نَفْسَهَا) ذِكْرِيَّاتُ الْهَجْرَةِ؛ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا، حُزْنًا عَلَى فِرَاقِ الْوَطَنِ فِي زَمَنِ الْخَرِيفِ الْقَادِمِ.

وَلَا تَعَجَبْ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الذَّكِيُّ - مِنْ حَنِينِ الطُّيُورِ إِلَى أَوْطَانِهَا؛ فَإِنَّ الْوَطَانَ حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِ كُلِّ مَنْ يَعِيشُ فِيهِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ، كَمَا هُوَ حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِكَ وَإِلَى نُفُوسِ غَيْرِكَ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ. وَقَدِيمًا قَالَ «أَبُو الْعَبَّاسِ بَنُ الرَّؤْمِيِّ» الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ، مُنْذُ أَلْفٍ وَمِئَتَيْنِ مِنَ السِّنِينَ:

«وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلَّا أَبِيعَهُ وَالْأَرَى غَيْرِي لَهُ - الدَّهْرُ - مَالِكًا
وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارَبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ، ذَكَرْتَهُمْ عُهُودَ الصَّبَا فِيهَا، فَحَنُّوا لِدَلِكَا.»

(٥) نَوْمُ الْخَطَّافِينَ

وَلَقَدْ بَدَّلَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» قُصَارَى جُهْدِهِ فِي تَسْلِيَةِ «أُمِّ سِنْدٍ»، وَتَهْوِينِ أَمْرِ الْهَجْرَةِ عَلَيْهَا، وَقَالَ لَهَا فِيمَا قَالَ: «إِنَّ أَمَامَنَا كَثِيرًا مِنَ الْمَبَاهِجِ وَجَالِبَاتِ السُّرُورِ، قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الشِّتَاءُ. وَلَا تَزَالُ عِنْدَنَا فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ تُخَفِّفُ مِنَ آلامِ الْهَجْرَةِ - يَا «أُمُّ سِنْدٍ» -

الفصل الثالث

فَلَا تَجْزَعِي، وَلَا يَشْغَلْ بِأَلِكِ شَيْءٌ الْآنَ، وَلِنُنْعَمَ بِالرُّقَادِ (لِنَسْتَمْتِعَ بِالنَّوْمِ) هَنِيئًا فِي عُسْنَا الْجَدِيدِ.

وَمَا زَالَ يُرْفُهُ (يُخَفِّفُ) عَنْهَا، حَتَّى أَنْسَاهَا مَا شَعَرَتْ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ، وَاسْتَسَلَمَتْ لِلرُّقَادِ، فَنَامَتْ، وَنَامَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» إِلَى الصَّبَاحِ.

(٦) أَوْلَادُ «أُمِّ سِنْدٍ»

وَلَمَّا جَاءَ الْغَدُ، لَمْ تَبْرَحِ «أُمُّ سِنْدٍ» عُسَّهَا. وَمَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْفَرَحِ بِبَيضَاتِهَا الْأَرْبَعِ الْأُولَى، الَّتِي وَضَعَتْهَا فِي عُسَّهَا، وَهِيَ بَيضَاتٌ صَغِيرَةٌ، بِهَا نَقَطٌ شُقْرٌ وَسُمْرٌ. وَقَدْ بَاضَتْهَا «أُمُّ سِنْدٍ» فَوْقَ الرِّيَاشِ الَّتِي فِي عُسَّهَا. وَكَانَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» تَرْقُدُ عَلَيْهَا حَانِيَةً، مُشْفِقَةً (خَائِفَةً) أَنْ يُصِيبَهَا أَقْلٌ سَوْءٍ.

(٧) طَعَامُ الْخُطَّافِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» يَذْهَبُ مُنْفَرِدًا إِلَى الْخَارِجِ، لِيَجِيئَهَا بِالْقُوتِ، وَلَا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي جَلْبِ الذُّبَابِ الصَّغِيرِ، وَالْحَشْرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ النَّشِي تَسْتَطِيبُهَا زَوْجُهُ.

(٨) أَرْبَعَةُ مَنَاقِيرَ

وَمَا زَالَ يَتَعَهَّدُهَا، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْعُسِّ أَرْبَعَةُ مَنَاقِيرَ كَبِيرَةٌ وَهَكَذَا امْتَلَأَتْ الْغُرْفَةُ بِهَذَا النَّسْلِ النَّجِيبِ. وَفَرِحَ الْأَبْوَانُ بِصِيحَاتِ أَوْلَادِهِمَا الْأَعْزَاءِ، وَظَلَّ يَتَعَهَّدَانِهَا بِالتَّنَشِئَةِ (التَّرْبِيَةِ) حَتَّى تَمَّ لَهُمَا مَا أَرَادَاهُ.

(٩) حَوَارُ الْأَخُوَّةِ

وَصَاحَ «زَوَّارُ الْهِنْدِ» — ذَاتَ يَوْمٍ — وَهُوَ أَكْبَرُ أَبْنَاءِ أَبِيهِ سِنًا: «لَقَدْ مَشَيْتُ عَلَى رِجْلِي يَا أَخِي، وَسَأَحَدْتُ أَبِي بِهَذَا النَّبَأِ حِينَ يَعُودُ إِلَيْنَا.»

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ «زَوَّارُ السُّنْدِ»: «خَفِّضْ مِنْ صَوْتِكَ - يَا أَخِي - فَقَدْ كُذِّتَ تَخْرُقُ
أَذَانَنَا بِصَرَخِكَ!»

فَقَالَتْ «سُنُونِيَّةٌ» لِأَخَوَاتِهَا: «لَقَدْ غَابَ أَبِي، كَمَا غَابَتْ أُمِّي، فِي هَذَا النَّهَارِ. فَمَتَى
يَعُودَانِ؟»

فَأَجَابَتْهَا «جُحَيْجِيَّةٌ» وَهِيَ تَبْكِي: «صَدَقْتِ، يَا أُخْتِي. وَلَقَدْ اشْتَدَّ انْزِعَاجِي لِغَيْبَتِهِمَا،
وَلَمْ نَتَعَوَّدْ مِنْهُمَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ. وَأَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُمَا مَكْرُوهٌ، أَوْ يَكُونَا
- لَا قَدَرَ اللَّهُ - قَدْ مَاتَا.»

(١٠) قُدُومُ الْأَبْوَيْنِ

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعَ الْأَطْفَالُ الصِّغَارُ حَرَكَةً خَفِيفَةً.
فَصَاحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «أَبِي! أُمِّي! عَجَّلَا بِالْحُضُورِ؛ فَإِنِّي جَائِعٌ!»
ثُمَّ قَالَ «زَوَّارُ الْهِنْدِ»: «غَرِيبٌ أَنْ يَغِيبَ أَبَوَانَا عَنَّا، طُولَ هَذَا الْوَقْتِ!»
وَلَمْ يُتِمَّ كَلِمَتَهُ، حَتَّى صَاحَ «زَوَّارُ السُّنْدِ» وَ«سُنُونِيَّةٌ» وَ«جُحَيْجِيَّةٌ»، مَسْرُورِينَ: «وَأَ
فَرَحَتَاهُ! لَقَدْ جَاءَ أَبَوَانَا الْعَزِيزَانِ، فَمَا أَسْعَدَنَا بِمَقْدَمِهِمَا، (حُضُورِهِمَا)!»

(١١) زَادُ الْخَطَاطِيفِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» وَ«أُمُّ سِنْدٍ» قَدْ أَحْضَرَا فِي مَنَقَارِيهِمَا زَادَ أَوْلَادِهِمَا (طَعَامَهُمْ)،
فَقَالَا: «لَبِيكُم - أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ - فَقَدْ جِئْنَا، وَمَعَنَا مَا تَشْتَهُونَ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعَمَةِ.»
وَفَتَحَ الْأَوْلَادُ مَنَاقِيرَهُمْ، وَتَهَافَتُوا عَلَى الطَّعَامِ - فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ - حَتَّى شَبِعُوا.
ثُمَّ أَعْمَضُوا أَعْيُنَهُمْ مُتَهَيِّئِينَ (مُسْتَعِدِّينَ) لِلنَّوْمِ مَسْرُورِينَ.

الفصل الرابع

(١) حَادِثُ مُفَاجِئٍ

فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «لَعَلَّكُمْ - أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ - لَبِثْتُمْ (مَكْتَنُتُمْ) عَقْلَاءَ رَاشِدِينَ، فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِنَا الطَّوِيلَةِ. وَمَا أَظُنُّكُمْ تَعْرِفُونَ السَّرَّ فِي إِبْطَائِنَا عَلَيْكُمْ. فَقَدْ حَدَّثَ لَنَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ (وَقَعَ لَنَا مَا لَمْ يَكُنْ يَدُورُ فِي أَنْفُسِنَا، وَعَرَضَ لَنَا مَا لَمْ نَنْظُنُّهُ وَلَمْ نَتَوَقَّعْ حُدُوثَهُ).»

(٢) قِصَّةُ «أُمِّ هِنْدٍ»

فَفَتَحَ الصَّغَارُ أَعْيُنَهُمْ، وَطَارَ النَّوْمُ مِنْ أَجْفَانِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى أُمَّهِمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَى حَدِيثِهَا مُنْصِتِينَ، فِي لَهْفَةٍ بِالْغَةِ، وَشَوْقٍ شَدِيدٍ.
فَقَالَتْ لَهُمْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «إِنِّي قَاصَّةٌ عَلَيْكُمْ مَا حَدَّثَ لَنَا مِنَ الْعَجَائِبِ، بَعْدَ أَنْ تَفْسَحُوا لَنَا مَكَانًا فِي الْعُشِّ؛ فَقَدْ جَهَدْنَا التَّعَبُ.»

فَالْتَصَقَ الصَّغَارُ، بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَفَسَحُوا لِأَبْوَيْهِمْ مَكَانَيْنِ فِي عُشِّهِمُ الصَّغِيرِ.

(٣) صَوْتُ اسْتِغَاثَةٍ

ثُمَّ قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «قُصِّي عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ - يَا «أُمُّ سِنْدٍ» - فَإِنَّكَ أَطْلَقَ مِنِّي لِسَانًا، وَأَدَقُّ وَصْفًا، وَأَحْسَنُ بَيَانًا!»

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

فَأَنْشَأَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» تَقُولُ: «أَصْغُوا إِلَيَّ، أَيُّهَا الْأَعْزَاءُ: لَقَدْ كُنْتُ مَارَّةً — فِي أَثْنَاءِ طَيْرَانِي — عَلَى مَنْزِلٍ كَبِيرٍ؛ فَسَمِعْتُ — فَجَاءَةً — صَوْتًا يَرِنُ فِي أَجْوَاذِ الْفَضَاءِ (فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ): «أَغِيثُونِي! أَدْرِكُونِي!»

(٤) مَنْظَرُ هَائِلٌ

فَرَحْتُ أَجُولُ بِبَصْرِي — فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْفَضَاءِ — فَلَمْ أَرَ شَيْئًا. وَجَثَمْتُ عَلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ؛ فَلَمْ أَبْصُرْ كَائِنًا كَانَ. فَعَوَّلْتُ عَلَى الْمُضِيِّ فِي سَبِيلِي. وَبَيْنَا أَنَا طَائِرَةٌ فِي طَرِيقِي إِلَيْكُمْ، إِذْ أَبْصَرْتُ مَا فَزَعَنِي وَهَالَنِي (رَعَبَنِي)، وَمَلَأَ قَلْبِي أَسَى وَحُزْنًا. أَتَعْرِفُونَ أَيَّ هَوْلٍ رَأَيْتُمْ؟ رَأَيْتُ خُطَافًا صَغِيرًا شَدَّتْ رِجْلُهُ إِلَى خَيْطٍ مُعَلَّقٍ فِي الْفَضَاءِ، وَرَأْسُهُ مُنْكَسٌّ إِلَى أَسْفَلِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ الْخُلَاصَ فَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَلَا يَظْفَرُ بِطَائِلٍ (لَا يَنَالُ فَائِدَةً)، وَيَهُمُّ بِالطَّيْرَانِ، فَيُرْجِعُهُ الْخَيْطُ إِلَى الْوَرَاءِ؛ فَيُغَوِّثُ (يَطْلُبُ الْمَعُونَةَ) مُسْتَنْجِدًا؛ فَلَا يُنْجِدُهُ أَحَدًا.»

(٥) حُزْنُ الْأَفْرَاحِ

وَمَا وَصَلَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ قِصَّتِهَا، حَتَّى امْتَلَأَتْ قُلُوبُ أَفْرَاحِهَا الصِّغَارِ فَرْعًا وَرُعبًا، وَإِشْفَاقًا عَلَى ذَلِكَ الْخُطَافِ التَّاعِسِ الْمُسْكِينِ. وَتَأَلَّمَتْ لَهُ «سُنُونِيَّةٌ» وَ«جُحَيْجِيَّةٌ» وَ«زَوَّارُ الْهِنْدِ» وَ«زَوَّارُ السِّنْدِ»، وَعَقَدَ الْخَوْفُ أَلْسِنَتَهُمْ، وَبَدَأَ عَلَى سِيْمَاهُمْ (ظَهَرَ عَلَى مَرَاهِمُ) الْأَلَمُ وَالْحُزْنُ، وَأَرْهَفُوا آذَانَهُمْ لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ.

الفصل الرابع



(٦) نَكْبَةُ «أُمِّ هِنْدٍ»

فَاسْتَأْنَفْتُ «أُمَّ سِنْدٍ» حَدِيثَهَا، قَائِلَةً: «لَقَدْ عَرَفْتُهَا مِنْ صَوْتِهَا — أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ — وَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا صَدِيقَتِي «أُمُّ هِنْدٍ»، الَّتِي طَالَمَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْهَا، وَذَكَرْتُ لَكُمْ أَنَّهَا اغْتَصَبَتْ عُسْنًا، بَعْدَ أَنْ أَوْرَثْتَنَاهُ ابْنَةُ عَمِّي، وَهُوَ فِي مَخْرَنِ الْغَلَالِ الْقَدِيمِ.

(٧) صَفْحُ الْكَرِيمِ

وَلَمَّا عَرَفْتُهَا، طَافَتْ بِرَأْسِي فِكْرَةَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهَا.
وَهَمَمْتُ بِتَرْكِهَا وَجِيْدَةً فِي هَذَا الْمَازِقِ، جَزَاءً لَهَا عَلَى مَا أَسْلَفْتُ (مَا قَدَّمْتُ) مِنْ بَغْيٍ
وَعُدْوَانٍ وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا نَسِيتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْخَاطِئَةَ، وَصَفَحْتُ عَنْ زَلَّةِ صَدِيقَتِي، وَغَفَرْتُ

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

لَهَا عِنَادَهَا، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْأَخَوَاتِ جَدِيرَاتٌ أَنْ يَتَنَاسَيْنَ الْإِسَاءَاتِ، وَيَذْكُرْنَ الْحَسَنَاتِ، لَا سِيَّمَا فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَآزِقِ وَالْمَلَمَّاتِ.

(٨) أُسْرَابُ الْخَطَاطِيفِ

فَأَمْتَلَأَ قَلْبِي بِالرَّحْمَةِ لَهَا، وَالْعَطْفِ عَلَيْهَا، وَصَحْتُ — بِأَعْلَى صَوْتِي مُعَوِّثَةً (مُسْتَنْجِدَةً) بِأَصْدِقَائِي مِنَ الْخَطَاطِيفِ. فَلَبَّيْنِ دُعَائِي — فِي الْحَالِ — وَغَصَّ الْفَضَاءُ بِأَسْرَابِهِنَّ (أَمْتَلَأَ بِجَمَاعَاتِهِنَّ)، وَضَاقَ بِهِنَّ عَلَى رُحْبِهِ (بِرَغْمِ اتِّسَاعِهِ).

(٩) نَصِيحَةُ عَجُوزٍ

فَصَحْتُ فِيهِنَّ قَائِلَةً: «هَأَنْتُنَّ أَوْلَاءِ تَرَيْنَ مَا أَصَابَ أُخْتِكُنَّ «أُمَّ هِنْدٍ»، فَخَبَّرْنِي: كَيْفَ نَصْنَعُ لِإِنْقَادِهَا؟»

فَقَالَتْ خَطَافٌ عَجُوزٌ مُجَرَّبَةٌ، اجْتَازَتْ الْبَحْرَ الْكَبِيرَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّ مَرَّاتٍ: «الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَطِيرَ جَمِيعًا، وَنَصِيحَ بِأَعْلَى أَصْوَاتِنَا لِئِنْبَادِي «عِصَامًا»: ذَلِكَ الصَّبِيُّ الْمُهَذَّبُ الطَّيِّبَ الْقَلْبِ؛ لِيُنْقِذَ هَذِهِ الْأُخْتَ الْعَزِيزَةَ. وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا مُلَبِّيًا دُعَاءَنَا؛ فَهُوَ يُحِبُّنَا، وَيُعْطِفُ عَلَيْنَا، وَيَتَوَدَّدُ دَائِمًا إِلَيْنَا.»

فَقُلْتُ لَهَا: «صَدَقْتَ فِيمَا قُلْتِ — أَيُّهَا الْعَجُوزُ الْحَكِيمَةُ الْعَاقِلَةُ — وَلَكِنِّي أَحْشَى أَنْ يَضِيعَ الْوَقْتُ سُدًى (بِلَا فَائِدَةٍ). وَهَا هِيَ ذِي «أُمَّ هِنْدٍ» تَكَادُ تَخْتِنِقُ، وَمَا أَظُنُّ «عِصَامًا» فِي بَيْتِهِ الْآنَ.»

فَقَالَتْ الْخَطَاطِيفُ الْأُخْرَى: «صَدَقْتَ — يَا «أُمَّ سِنْدٍ» — فَمَاذَا تَرَيْنَ مِنْ وُجُوهِ الرَّأْيِ؟»

(١٠) تَعَبُ «أُمَّ سِنْدٍ»

وَلَمَّا بَلَغَتْ «أُمَّ سِنْدٍ» هَذَا الْحَدَّ مِنَ الْقِصَّةِ، شَعَرَتْ بِالتَّعَبِ. فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا، بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «لَقَدْ أَصَابَنِي الْجُهْدُ وَالْإِعْيَاءُ، وَجَفَّ حَلْقِي، فَتَمَّمْ أَنْتَ لَهُمْ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ، أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ.»

الفصل الرابع

(١١) المناقير الصلبة

فَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «لَقَدْ كَانَتْ أُمُّكُمْ - أَيُّهَا الْأَعَزَّاءُ - أَذْكَى خُطَّافٍ رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي. فَقَدْ صَاحَتْ فِي أَصْدِقَائِنَا قَائِلَةً: «الرَّأْيُ عِنْدِي - أَيُّهَا الْإِخْوَانُ - أَنْ نَقْطَعَ هَذَا الْخَيْطَ.»

فَقَالُوا لَهَا: «وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ، يَا أختاه؟»

فَقَالَتْ لَهُمْ: «إِنَّ مَنَاقِيرَنَا صُلْبَةٌ مَتِينَةٌ - كَمَا تَعْلَمُونَ - فَلَنْسِرِعَ إِلَى الْخَيْطِ، وَلَنْضُرِبَهُ بِمَنَاقِيرِنَا - مُتَعاقِبِينَ - ضَرْبَاتٍ قَوِيَّةً، حَتَّى نَقْطَعَهُ!»
فَصَاحَ الْخَطَّاطِيفُ جَمِيعًا: «مَرَحَى لِكَ، أَيَّتُهَا الذَّكِيَّةُ الرَّشِيدَةُ! فَلِنَأْخُذْ بِرَأْيِكَ السَّيِّدِ.»

(١٢) «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ»

وَجَاءَ «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ؛ وَهُوَ زَوْجٌ «أُمُّ هِنْدٍ» وَحَفِيدٌ «أَبِي الْفِدَاءِ» الْمَلَقَّبُ بِ«بُعْصُورِ الْفِرْدَوْسِ»، صَاحِبِ الْأَمِيرِ السَّعِيدِ، كَمَا تَعْلَمُونَ. فَتَجَلَّى أَمَامَنَا حُبُّهُ وَإِخْلَاصُهُ وَوَفَاؤُهُ لِرُؤُوسِهِ؛ وَقَدْ اقْتَرَبَ مِنْهَا مُتَوَدِّدًا، وَظَلَّ يُوسِّسُهَا (يُصَبِّرُهَا) وَيَطْمَئِنُّهَا، وَيُسْرِي عَنْ نَفْسِهَا، وَيُؤَكِّدُ لَهَا قُرْبَ خَلَاصِهَا مِنَ الْمَازِقِ الْحَرَجِ.

(١٣) قَطْعُ الْخَيْطِ

وَلَقَدْ أَخَذْتُ نَفْسِي بَعْدَ النِّقَرَاتِ وَإِحْصَائِهَا - لِأَتَّبِي وَجَدْتُ فِي هَذَا سَلْوَى وَتَعْزِيَةً - فَرَأَيْتُهَا قَدْ نَيْفَتْ (زَادَتْ) عَلَى الْمِئَةِ. ثُمَّ رَأَيْتُ «أُمَّ هِنْدٍ» تَنْبُ (تَنْطُ) وَتَبَّةً قَوِيَّةً؛ فَتَقَطَّعَ الْخَيْطَ، وَتَنْطَلِقُ مِنْ إِسَارِهَا، وَتَقَرُّ عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ!»

(١٤) شُكْرُ «أُمِّ هِنْدٍ»

وَلَمَّا انْتَهَى بِهِ الْكَلَامُ إِلَى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ السَّارَّةِ، فَرِحَ أَوْلَادُهُ بِخَلَاصِ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَأَعْجَبُوا بِرَأْيِ أُمِّهِمُ السَّيِّدِ.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

فَقَالَ لَهُمْ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «وَلَوْ سَمِعْتُمْ شُكْرَ «أُمِّ هِنْدٍ» لِأَمِّكُمْ عَلَى صَنِيعِهَا (مَعْرُوفِهَا)، لَبَكَيْتُمْ مِنْ فَرْطِ التَّأَثُّرِ؛ فَقَدْ أَثْنَتَ عَلَيْهَا بِمَا هِيَ أَهْلُهُ.»
ثُمَّ خَتَمَتْ ثَنَاءَهَا قَائِلَةً: «لَنْ أَنْسَى لَكَ — مَا حَيَّيْتُ — ذَلِكَ الصَّنِيعَ الَّذِي تَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَلَنْ أَنْسَى لَكُمْ — يَا أَصْدِقَائِي — هَذَا الْعَطْفَ النَّبِيلَ طُولَ عُمْرِي. فَقَدْ كُنْتُ — لَوْلَا عَنَائَتُكُمْ — هَالِكَةً، لَا مَحَالَهَ — وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَصِيرَ أَوْلَادِي مِنْ بَعْدِي!»

(١٥) خُطْبَةُ «عُصْفُورِ الْجَنَّةِ»

وَقَدْ بَكَى «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» حِينَ سَمِعَ كَلَامَ زَوْجِهِ؛ فَبَدَّلْنَا جُهْدَنَا فِي تَعَزِيَّتِهِ، وَنَهَوَيْنِ الْمُصَابَ عَلَيْهِ، حَتَّى سُرِّيَ عَنْهُ (كُشِفَ عَنْهُ الْهَمُّ)، وَسَكَنَ رُوعُهُ (اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ)، وَأَفْرَحَ رُوعُهُ (زَالَ عَنْهُ رُعبُهُ وَذَهَبَ خَوْفُهُ).
ثُمَّ صَعَدَ إِلَى ذِرْوَةِ السَّطْحِ، وَشَكَرَ لَنَا صَنِيعَنَا شُكْرًا بَلِيغًا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْعِيَّةِ نَادِرَةٍ. وَقَدْ خَتَمَ خُطَابَهُ الرَّائِعَ بِقَوْلِهِ: «... فَلَكُمْ مِنَّا — أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ الْأَصْفِيَاءُ — حُبُّنَا الْخَالِصُ، وَاعْتِرَافُنَا بِفَضْلِكُمْ إِلَى الْأَبَدِ.»
وَقَدْ حَيَّيْنَاهُ عَلَى بَلَاغَتِهِ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ. ثُمَّ سَارَ «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» مَعَ «أُمِّ هِنْدٍ» — بَعْدَ أَنْ وَدَعَانَا — شَاكِرِينَ!
فَصَاحَ الْأَفْرَاحُ الصَّغَارُ مُعْجَبِينَ بِمَا سَمِعُوا: «يَا لَهَا مِنْ قِصَّةٍ شَائِقَةٍ! فَشُكْرًا لَكُمْ، أَيُّهَا الْوَالِدَانِ الْعَزِيزَانِ!»

الفصل الخامس

(١) قصة «أبي الفداء»

فَقَالَ «زَوَّارُ الْهِنْدِ»: «لَقَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ «أَبَا الْفِدَاءِ» — الْمُلَقَّبَ بِـ «عُصْفُورِ الْفِرْدَوْسِ» جَدَّ «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ» — كَانَ صَدِيقًا لِتِمْتَالِ الْأَمِيرِ السَّعِيدِ، وَقُلْتَ لَنَا إِنَّهُ كَانَ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الْإِيْتَارِ وَالْوَفَاءِ. وَلَكِنَّكَ نَسِيتَ أَنَّ تَفْضِي إِلَيْنَا (تُخْبِرُنَا) بِقِصَّتِهِ، أَوْ تَذَكَّرَ لَنَا شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِهِ!»

(٢) ذُيُوعُ الْقِصَّةِ

فَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «صَدَقْتَ، يَا وَلَدِي الْعَزِيزَ. لَقَدْ فَاتَنِي ذَلِكَ، وَلي مَوْفُورُ الْعُذْرِ إِذَا نَسِيتُ؛ فَقَدْ خِيَلُ إِلَيَّ — لِكثْرَةِ مَا سَمِعْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ — أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي الْعَالَمِ، مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَحَشْرَةٍ وَإِنْسَانٍ، عَلَى عِلْمٍ بِهِذِهِ الْقِصَّةِ. وَنَسِيتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ حَدِيثُوا الْعَهْدِ بِهِذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ عَجَبِي لَا يَنْقُضِي إِذَا ذَكَرْتُ أَنَّ أُمَّكَ لَمْ تَقْصَّهَا عَلَيْكَ — مُنْذُ وَلَدْتِكَ — كَمَا تَفْعَلُ أُمَّهَاتُ الْخَطَاطِيفِ جَمِيعًا.»

(٣) الْأَمِيرُ الْمُحْسِنُ

فَاشْتَدَّ شَوْقُ «زَوَّارِ الْهِنْدِ» وَإِخْوَتِهِ إِلَى سَمَاعِ تِلْكَ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ، وَأَنْشَأَ وَالِدُهُنَّ يُحَدِّثُهُنَّ بِهَا، فَيَقُولُ: «كَانَ يَا مَا كَانَ، فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَغَابِرِ الْأَوَانِ، أَمِيرٌ مَعْرُوفٌ بِطَبِيبَةِ الْقَلْبِ،

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

مَوْصُوفٌ بِالرَّفْقِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَطْفِ عَلَى الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ، وَالْبِرِّ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ.

(٤) التَّمَثَالُ الذَّهَبِيُّ

فَلَمَّا مَاتَ، أَقَامَ لَهُ عَارِفُو فَضْلِهِ تَمَثَالًا كَبِيرًا؛ عِرْفَانًا لِمُرُوءَتِهِ، وَتَخْلِيدًا لِعَظَمَتِهِ، وَكَسُوا التَّمَثَالَ جِلْبَابًا رَقِيقًا، نَسَجُوا خُيُوطَهُ مِنْ خَالِصِ النُّضَارِ (مِنَ الذَّهَبِ الْحُرِّ).
وَاخْتَارُوا لِهَذَا التَّمَثَالِ - مِنْ زُرْقِ الْيَوَاقِيتِ النَّفِيسَةِ الْبَرَّاقَةِ - أَعْلَى يَاقُوتَتَيْنِ؛ فَصَنَعُوا مِنْهُمَا عَيْنِي التَّمَثَالِ، عَلَى أَكْمَلِ مِثَالٍ.



وَاهْتَدَوْا - بَعْدَ طُولِ الْبَحْثِ - إِلَى دُرَّةٍ كَبِيرَةٍ مُوْتَلِقَةٍ (لَامِعَةٍ) مِنْ أَنْفَسِ الْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى مَقْبِضِ سَيْفِهِ، حَلِيَّةً تَبْهَرُ بِمَرَاها عَيْنَ مَنْ يَرَاهَا.

الفصل الخامس

(٥) الفَرَّاشَةُ الصَّفْرَاءُ

وَكَانَ «أَبُو الْفِدَاءِ» الْمَلْقَبُ بِـ «عُصْفُورِ الْفِرْدَوْسِ» يُحَلِّقُ — ذَاتَ لَيْلَةٍ — فِي الْجَوِّ (يَرْتَفِعُ وَيَسْتَدِيرُ فِي طَيْرَانِهِ كَالْحَلْقَةِ)، وَكَانَتْ رِفَاقُهُ الْخَطَاطِيفُ قَدْ سَبَقَتْهُ إِلَى السَّفَرِ، مُنْذُ شَهْرٍ وَنِصْفِ شَهْرٍ، ذَاهِبَةً عَلَى عَادَتِهَا فِي الْهَجْرَةِ السَّنَوِيَّةِ إِلَى «مِصْرَ».

وَلَمْ يُعَوِّقْهُ عَنِ الذَّهَابِ مَعَ رِفَاقِهِ إِلَّا فَرُطُ مَحَبَّتِهِ وَوَفَائِهِ لِنَبْتَةِ ظَرِيفَةٍ مِنْ عِيدَانِ الْقَصَبِ الطَّوِيلَةِ، تَعَرَّفَ بِهَا، وَسَكَنَ إِلَيْهَا فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ مُسْرِعًا فِي طَيْرَانِهِ — حِينِيذٍ — خَلْفَ فَرَّاشَةٍ كَبِيرَةٍ صَفْرَاءَ.

(٦) فِي جِوَارِ الْقَصَبَةِ

فَشَغَلَهُ جَمَالُ تِلْكَ الْقَصَبَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَوَقَّفَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا مُبْتَهَجًا بِلُقْيَاهَا، وَلَمْ يُفَارِقْهَا مُنْذُ رَأَاهَا، وَظَلَّ نَاعِمًا بِهَا طَوَالَ فَصْلِ الصَّيْفِ.

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْخَرِيفُ، هَاجَرَ أَصْحَابُهُ إِلَى «مِصْرَ».

وَحَاوَلَ «أَبُو الْفِدَاءِ» أَنْ يُغْرِيَ الْقَصَبَةَ بِالطَّيْرَانِ مَعَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَى هَذَا سَبِيلًا؛ لِأَنَّ النَّبَاتَ عَاجِزٌ عَنِ مُفَارَقَةِ مَكَانِهِ.

وَاشْتَدَّ شَوْقُهُ إِلَى السَّفَرِ لِتَمَتُّعِ بِرُؤْيَةِ الْأَهْرَامِ وَالنَّيْلِ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الْقَصَبَةَ أَسْفًا عَلَى فِرَاقِهَا، عَاتِبًا عَلَيْهَا أَنْ تَتَخَلَّفَ عَنْ مُصَاحِبَتِهِ فِي رِحْلَتِهِ.

(٧) تِمْنَالُ الْأَمِيرِ

وَهَبَطَ فِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ عَلَى تِمْنَالِ الْأَمِيرِ، وَتَهَيَّأَ لِلرُّقَادِ بَيْنَ قَدَمَيْ التَّمْنَالِ. وَإِنَّهُ لِيَهُمُّ بِالنَّوْمِ (يَعْزِمُ عَلَيْهِ وَيَقْصِدُهُ)، وَاضِعًا رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِيهِ — عَلَى عَادَةِ الْخَطَاطِيفِ حِينَ تَنَامُ — إِذَا بَقِطْرَةٌ مِنَ الْمَاءِ تَسْقُطُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَتْبَعُهَا قَطْرَةٌ ثَانِيَةٌ، ثُمَّ تَعْقُبُهُمَا قَطْرَةٌ ثَالِثَةٌ.

فَلَمْ يَزِدْ بَدًّا (مَهْرَبًا) مِنْ مُفَارَقَةِ التَّمْنَالِ، مُعْتَزِمًا أَنْ يَأْوِي إِلَى رَأْسِ مِدْخَنَةٍ عَالِيَةٍ.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

(٨) دُمُوعُ التَّمَثَالِ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهَمَّ بِالطَّيْرَانِ، حَتَّى حَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ إِلَى عَيْنِي التَّمَثَالِ؛ فَرَأَى الدُّمُوعَ تَتَرَقَّرُ فِيهِمَا (تَدُورُ فِي بَاطِنِ الْجَفْنَيْنِ مِنْهُمَا) عَلَى خَدَّيْهِ.

(٩) قِصَّةُ الْأَمِيرِ

فَاشْتَدَّ عَجَبُ «أَبِي الْفِدَاءِ» مِمَّا رَأَى، وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ. فَقَالَ التَّمَثَالُ فِيمَا قَالَ: «لَقَدْ عَشْتُ حَيَاةً سَعِيدَةً، وَلَمْ تَذْرِفْ عَيْنَايَ (لَمْ تُسِيلَا) دَمْعَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّي لَمْ أُعْرِفْ مَا يَنْعَرِّضُ لَهُ النَّاسُ مِنْ بُؤْسٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. فَلَمَّا حَانَ حَيْنِي (مَوْتِي)، وَانْتَقَلْتُ مِنْ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ إِلَى عَالَمِ الْأَمْوَاتِ، أَصْبَحْتُ أَرَى — وَأَنَا عَلَى هَذَا الِارْتِفَاعِ الشَّاهِقِ (الْعَالِي) — مَا يُبْكِينِي مِنْ مَصَائِبِ النَّاسِ، وَيَكَادُ يَدُوبُ لهُ قَلْبِي الْمَصْنُوعُ مِنَ الرَّصَاصِ.



الفصل الخامس

(١٠) الأرملة الفقيرة

وَهَآنَذَا أَرَى فَقِيرَةً أَرْمَلَةً (امْرَأَةً مَاتَ زَوْجُهَا)، تَكْسِبُ قُوَّتَهَا بِعَرَقِ جَبِينِهَا، وَلَا تَكَادُ تَظْفَرُ بِالْكَفَافِ مِنَ الرَّزْقِ (بِمَا كَفَّ عَنِ النَّاسِ وَأَغْنَى) إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ (بِمَشَقَّتِهَا). وَهِيَ دَائِبَةٌ عَلَى الْعَمَلِ، لِتُدَاوِيَ - بِمَا تَنَالَهُ مِنْ أَجْرِ ضَيْلٍ - وَلَدَهَا الْعَلِيلَ. وَلَوْ اسْتَطَعْتُ لَأَهْدَيْتُ إِلَيْهَا تِلْكَ الْعَقِيْقَةَ الثَّمِيْنَةَ الَّتِي تُحَلِّي مَقْبِضَ سَيْفِي. وَلَكِنِّي عَاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ، كَمَا تَرَى.

فَهَلْ تُبْلِغُهَا (تُوصِلُهَا) إِلَيْهَا مَشْكُورًا مَاجُورًا، لِتَسْتَعِينَ - بِثَمَنِهَا - عَلَى مُدَاوَاةِ ابْنِهَا؟»

(١١) أشرار الناس

فَقَالَ «أَبُو الْفِدَاءِ»: «مَا أَحْجَجَنِي إِلَى اللَّحَاقِ بِإِخْوَانِي الَّذِينَ سَبَقُونِي إِلَى «مِصْرَ»! عَلَى أَنِّي سَابَقْتَنِي مَعَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، تَلْبِيَّةً لِأَمْرِكَ، وَإِعْجَابًا بِمُرُوءَتِكَ، وَمُشَارَكَةً لَكَ فِي عَاطِفَتِكَ، وَمُعَاوَنَةً لَكَ عَلَى إِنْجَازِ أُمْنِيَّتِكَ بِرَغْمِ قَسْوَةِ الْجَوِّ، وَاسْتِدَادِ الْبُرْدِ، وَكَرَاهِيَّتِي لِلْأَطْفَالِ، بَعْدَمَا رَأَيْتُ مِنْ بَعْضِهِمْ مَا بَعْضُهُمْ إِلَيَّ.

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ وَلَدَيْنِ مِنْ أَشْرَارِ الْإِنْسِ، رَمِيَانِي فِي الصَّيْفِ الْمَاضِي بِالْحَجَارَةِ حِينَ رَأَيْتَنِي، وَلَوْلَا مَا تَمَيَّزْنَا بِهِ - مَعْشَرَ الْخَطَاطِيْفِ - مِنْ مَهَارَةٍ وَبِرَاعَةٍ نَادِرَتَيْنِ فِي الطَّيْرَانِ، لَأَلْحَقَا بِي أَدْنَى بَلِيغًا.

وَلَكِنِّي لَنْ أَخْذَ الطِّفْلَ الْمَرِيضَ بِذَنْبِ غَيْرِهِ مِنْ أَشْرَارِ الْإِنْسِ. وَسَأَكُونُ سَفِيرَكَ (رَسُولَكَ) إِلَيْهِ؛ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ وَلَا تَبْتَسِ (لَا تَشْتَكِ وَلَا تَكْتَبِ).

(١٢) العقيقة الثمينة

فَشَكَرَ لَهُ النَّمْثَالُ أَرِيحِيَّتَهُ (سَعَةَ حُلُقِهِ وَارْتِيَاحَهُ إِلَى الْخَيْرِ)، وَحَمَدَ لَهُ عَطْفَهُ وَمُرُوءَتَهُ وَكَرَمَ أَخْلَاقِهِ.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

وَأَمْسَكَ الْخُطَّافُ بِالْعَقِيْقَةِ الثَّمِيْمَةِ، وَانْتَزَعَهَا بِمِنْقَارِهِ الصُّلْبِ مِنْ مَقْبِضِ السَّيْفِ، ثُمَّ طَارَ بِهَا - وَهِيَ فِي مَنْقَارِهِ - حَتَّى بَلَغَ بَيْتَ الصَّبِيِّ الْفَقِيرِ، وَوَضَعَهَا فِي مَكَانٍ أَمِينٍ بِالْقُرْبِ مِنْ سَرِيرِ الْمَرِيضِ الْمَحْمُومِ (الَّذِي أَصَابَتْهُ الْحُمَى).

(١٣) ثَوَابُ الْخَيْرِ

وَلَمَّا عَادَ إِلَى التَّمْثَالِ، وَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ، شَكَرَ لَهُ التَّمْثَالُ صَنِيعَهُ (مَعْرُوفَهُ). وَأَحْسَسَ «أَبُو الْفِدَاءِ» بِالْحَرَارَةِ وَالْدَّفءِ يَسْرِيَانِ فِي جَسَدِهِ بِرَغْمِ بُرُودَةِ الْجَوِّ. فَسَأَلَ التَّمْثَالَ عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ التَّمْثَالُ: «إِنْ لِكُلِّ صَنِيعٍ مِنَ الْخَيْرِ ثَوَابُهُ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَمَا لَبِثَ أَنْ اسْتَسَلَّمَ لِلْكَرَى (لِلنُّوْمِ) فِي دَعَةِ (رَاحَةِ) وَاطْمِئْنَانَ.

(١٤) الْكَاتِبُ الْبَائِسُ

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، أَقْبَلَ عَلَى صَدِيقِهِ التَّمْثَالَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي السَّفَرِ إِلَى «مِصْرَ». وَلَكِنَّ التَّمْثَالَ رَجَاهُ مُسْتَعْطَفًا أَنْ يَبْقَى مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى؛ لِيُعَاوَنَ فَتَى بَائِسًا مِنَ النَّابِغِينَ، مَشْغُولًا بِكِتَابَةِ قِصَّةٍ مَسْرُوحِيَّةٍ بَارِعَةٍ، وَلَكِنَّ الْجُوعَ يَعُوقُهُ (يُؤَخِّرُهُ) عَنْ إِتْمَامِهَا، وَيَكَادُ يَقْتُلُهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: «لَيْتَكَ تَأْخُذُ إِحْدَى عَيْنَيَّ لِتَحْمِلَهَا إِلَيْهِ؛ فَهِيَ - كَمَا تَرَى - يَاقُوتَةٌ زَرْقَاءٌ مِنْ أَنْفَسِ اللَّالِئِ النَّادِرَةِ، لَيْسَتَعَيْنَ - بِثَمَنِهَا - عَلَى إِنْجَازِ مُهِمَّةٍ.»

وَتَرَدَّدَ الْخُطَّافُ فِي تَلْبِيَةِ أَمْرِ صَاحِبِهِ، وَبَكَى رَحْمَةً لَهُ وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ التَّمْثَالَ أَلْحَ فِي الرَّجَاءِ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ «أَبُو الْفِدَاءِ» مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ.

وَطَارَ «أَبُو الْفِدَاءِ» وَفِي مَنْقَارِهِ عَيْنُ التَّمْثَالِ، بَعْدَ أَنْ نَقَرَهَا وَانْتَزَعَهَا مِنْ مَكَانِهَا. وَمَا زَالَ يَطِيرُ بِهَا حَتَّى بَلَغَ حُجْرَةَ الْفَتَى النَّابِغَةِ؛ فَوَضَعَهَا بِحَيْثُ نَقَعُ عَلَيْهَا عَيْنَاهُ. وَكَانَ لِهَذِهِ الْيَاقُوتَةِ الثَّمِيْمَةِ أَكْبَرُ أَثَرٍ فِي تَشْجِيحِ الْمُؤَلِّفِ الْفَتَى، وَانْتِعَاشِ أَمَلِهِ، وَمُضَاعَفَةِ نَشَاطِهِ فِي تَجْوِيدِ عَمَلِهِ.

الفصل الخامس

(١٥) الفتاة البائسة

وَعَادَ الْخَطَّافُ إِلَى صَاحِبِهِ التَّمْثَالِ؛ لِيُودِّعَهُ، مُسْتَأْذِنًا فِي السَّفَرِ إِلَى «مِصْرَ». وَلَكِنَّ التَّمْثَالَ
أَلْحَّ عَلَيْهِ فِي الرَّجَاءِ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ لَيْلَةً ثَالِثَةً، لِيَنْتَزِعَ الْجَوْهَرَةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عَيْنِهِ الْأُخْرَى،
وَيَحْمِلَهَا إِلَى فَتَاةٍ فَقِيرَةٍ فَقَدَتْ عَائِلَهَا (كَأَفْلَهَا الَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهَا)، وَكَادَ الْيَأْسُ — مِنْ بَعْدِهِ
— أَنْ يَقْتُلَهَا. فَقَدْ أَعْوَزَهَا الْكِسَاءُ وَالطَّعَامُ (أَعْجَزَهَا أَنْ تَحْصَلَ عَلَى الْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ)،
وَحَرَمَهَا الْبُرْدُ وَالْجُوعُ طِيبَ الْمَنَامِ.



وَتَرَدَّدَ «أَبُو الْفِدَاءِ» فِي نَقْرِ عَيْنِهِ الْأُخْرَى، مُشْفِقًا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَى؛ وَلَكِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى
الْإِذْعَانِ (الْخُضُوعِ) لِأَمْرِ صَاحِبِهِ التَّمْثَالِ، وَنَقَرَ عَيْنَهُ الْأُخْرَى، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى الْفَتَاةِ، لِتَعْنَى
(لِتَعِيشَ) بِتَمَنِّهَا طُولَ الْحَيَاةِ.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

(١٦) وَفَاءُ الْخَطَّافِ

وَلَمَّا عَادَ الْخَطَّافُ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ: «لَنْ أَتْرَكَ صُحْبَتَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا، لِأَوْسِيكَ فِي مَحْنَتِكَ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتَ عَيْنَيْكَ جَمِيعًا.»
وَحَاوَلَ التَّمَثُّلُ أَنْ يَثْنِيَهُ (يَرْجِعُهُ) عَنْ عَزْمِهِ، وَأَلْحَّ عَلَيْهِ فِي الرَّجَاءِ أَنْ يَتْرُكَهُ لِيَتِمَّ رِحْلَتُهُ السَّنَوِيَّةَ إِلَى «مِصْرَ».
وَلَكِنَّ وَفَاءَ «أَبِي الْفِدَاءِ» أَبِي عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ ذَلِكَ الْمُحْسِنَ الْكَرِيمَ، الَّذِي جَادَ بِأَنْفُسِ مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ مُعَاوَنَةِ الْبَائِسِينَ.

(١٧) الْجَائِعَانِ الصَّغِيرَانِ

وَأَقْتَرَحَ عَلَيْهِ التَّمَثُّلُ أَنْ يَرْتَادَ (يَطْلُبَ) شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَبُيُوتَهَا، لِيُفْضِيَ إِلَيْهِ بِأَنْبَاءِ فَقْرَائِهَا وَمَنْكُوبِيهَا؛ لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ إِسْدَاءَ الْمَعُونَةِ إِلَيْهِمْ. وَمَا لَبِثَ «أَبُو الْفِدَاءِ» أَنْ رَأَى طِفْلَيْنِ صَغِيرَيْنِ نَائِمَيْنِ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، تَحْتَ الْجِسْرِ، وَهُمَا يَتَضَوَّرَانِ جُوعًا، وَقَدْ أَقْبَلَ الْعَسَسُ (الَّذِينَ يَحْرُسُونَ النَّاسَ لَيْلًا). فَلَمَّا رَأَاهُمَا الْعَسَسُ أَيقَظُوهُمَا مِنْ رُقَادِهِمَا؛ فَذَهَبَ الطِّفْلَانِ يَجُوبَانِ (يَقْطَعَانِ) شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ، وَالْمَطَرُ يَنْهَمِرُ (يُنْسَكِبُ) عَلَيْهِمَا، وَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِمَا الْمَلْجَأُ وَالْمَأْكُلُ وَالْكِسَاءُ.
فَلَمَّا أَفْضَى الْخَطَّافُ بِقِصَّتِهِمَا إِلَى صَاحِبِهِ التَّمَثُّلِ، رَجَاهُ أَنْ يَنْتَزِعَ قِطْعَةً مِنْ ثِيَابِهِ الذَّهَبِيَّةِ؛ لِيَمْنَحَ الطِّفْلَيْنِ مَا يَقِيمُ أَوْدَهُمَا، وَيُعِيدَ الْحَيَاةَ إِلَيْهِمَا.

الفصل الخامس

(١٨) خاتمة «أبي الفداء»



وَمَا زَالَ «أَبُو الْفِدَاءِ» يَنْتَزِعُ مِنْ ثِيَابِ صَاحِبِهِ قِطْعَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَيَهْبِئُهَا لِفَقِيرٍ بَعْدَ آخَرَ؛
حَتَّى فَنِيَ الْكِسَاءُ الذَّهَبِيُّ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ.
وَأَشْتَدَّ الْبُرْدُ، وَأَشْرَفَ «أَبُو الْفِدَاءِ» عَلَى التَّلْفِ (قَرَبَ مَوْتَهُ)؛ فَأَقْبَلَ عَلَى التَّمْنَالِ يُقَبِّلُهُ
مُودَعًا إِيَّاهُ قُبَيْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ هَوَى (سَقَطَ) عَلَى قَدَمَيْهِ - مِنْ فَوْرِهِ (لِلْحَالِ) - مَيِّئًا.

(١٩) قَلْبُ التَّمْنَالِ

وَأَشْتَدَّ الْبُرْدُ، وَتَسَاقَطَ الْجَلِيدُ؛ فَتَحَطَّمَ قَلْبُ التَّمْنَالِ.
وَلَعَلَّهُ انْشَقَّ حُزْنًا لِمَصْرَعِ صَاحِبِهِ «أَبِي الْفِدَاءِ».

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ مَرَّ مَهْنَدِسُ الْمَدِينَةِ بِالتَّمْتَالِ الْمُحَطَّمِ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَى أُولِي الْأَمْرِ أَنْ يُزِيلُوهُ،
بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ لَا نَفْعَ فِيهِ، وَلَا فَائِدَةَ تُرْجَى مِنْ بَقَائِهِ.

(٢٠) مَلِكُ كَرِيمٍ

وَجَاءَ مَلِكُ كَرِيمٍ، فَحَمَلَ قَلْبَ التَّمْتَالِ وَجَسَدَ الطَّائِرِ الْمَيِّتِ إِلَى السَّمَاءِ: تَكْرِيمًا لَهُمَا عَلَى
مَا بَدَّلَاهُ، وَتَخْلِيدًا لِذِكْرَاهُمَا، وَتَقْدِيرًا لَهُمَا عَلَى مَا صَنَعَاهُ بَعْدَ أَنْ جَادَ كِلَاهُمَا بِأَنْفُسِ مَا
يَمْلِكُهُ فِي الْحَيَاةِ.»

(٢١) دَهْشَةُ الْخَطَاطِيفِ

فَلَمَّا أَتَمَّ «زَوَارُ الْهِنْدِ» قِصَّتَهُ، أُعْجِبَ بِهَا أَبْنَاؤُهُ، كَمَا أُعْجِبَتْ بِهَا أَنْتَ، وَكَمَا أُعْجِبَ بِهَا —
مِنْ قَبْلِكَ — الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ «أُسْكَارُ وَيْلِدُ»، فَصَاعَ مِنْهَا تِلْكَ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ، بَعْدَ أَنْ افْتَنَّ
فِي إِبْدَاعِهَا كُلِّ الْإِفْتِنَانِ، وَأَحْسَنَ فِي تَصْوِيرِ حَوَادِثِهَا كُلِّ الْإِحْسَانِ، وَخَلَّدَهَا بَيَانِهِ السَّاحِرُ
عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

(٢٢) طَعَامُ الْعِشَاءِ

وَأَحْسَّ الْخَطَاطِيفُ أَلَمَ الْجُوعِ؛ فَسَأَلُوا آبَاءَهُمْ أَنْ يُحْضِرَ لَهُمْ شَيْئًا مِنَ الزَّادِ.
فَقَالَ لَهُمْ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ: «خَفِّضُوا مِنْ أَصْوَاتِكُمْ — أَيُّهَا الصِّغَارُ — فَإِنَّ أُمَّكُمْ
نَائِمَةٌ؛ لِتَسْتَرِيحَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِمَّا أَنْقَضَ ظَهْرَهَا (مِمَّا أَنْقَلَهُ حَتَّى جَعَلَهُ مَهْزُولًا مِنْ جُهِدِ
مُضْنٍ)، وَاصْبِرُوا قَلِيلًا، حَتَّى أُحْضِرَ لَكُمْ طَعَامَ الْعِشَاءِ.»

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى حَادِثِ «أُمِّ سِنْدٍ» وَذَاعَ أَمْرُهُ بَيْنَ الْخَطَاطِيفِ كُلِّهَا، وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الصَّدَاقَةِ وَالْحُبِّ بَيْنَ «أُمِّ هِنْدٍ» وَ«أُمِّ سِنْدٍ»؛ فَأَصْبَحَتَا مُتَلَازِمَتَيْنِ، لَا تُطِيقُ إِحْدَاهُمَا فِرَاقَ صَاحِبَتِهَا الْأُخْرَى.

وَيُقَالُ — وَقَدْ أَكَّدَتِ الْخَطَاطِيفُ هَذَا الْقَوْلَ — إِنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» حِينَ عَادَتْ مِنْ رِحْلَتِهَا فِي الْعَامِ التَّالِي، بَنَتْ عُسَّهَا فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ، بِجَوَارِ «أُمِّ سِنْدٍ»؛ حَتَّى تَنْعَمَ بِحَدِيثِهَا، وَتَقَرَّ عَيْنًا بِجَوَارِهَا، وَلَا تَفَارِقَهَا لِحِظَةً وَاحِدَةً بَقِيَّةَ حَيَاتِهَا.



الْخُطَّافُ

نشأته

طائر ذكي نشيط، في مثل حجم العصفور، أو قريب منه، لا يجنح إلى الدَّعة (لا يميل إلى الهدوء)، ولا يرتاح للسكينة، ولا يألّفهما، ولا يطيق الكسل، ولا يخلد (لايركن) إلى الراحة، ولا يعرفهما، إلا إذا جنَّ عليه الليل، أو حان الوقت لتغذية أفراخه الصغار.

لونه

ويتميز لونه بسواد يضرب (يميل) إلى الزُّرقة، ولكنه يلمع في أعلاه، ثم يتحول – في صدره وتحت جناحيه – إلى بياض شاهق. فإذا انتهى إلى زوره وجبهته، انقلب إلى دُكنة (حمرة ضاربة إلى السواد)، ثم تنتهي رقبته الحمراء بخط أزرق.

هجرته

وهو مثال عجيب للصبر والدءوب والمثابرة على السعي وراء رزقه، لا يعرف الكلال (الإعياء والتعب)، ولا يتسرب إلى نفسه السأم ولا الملال.

وهو لا يبالي أن يهجر موطنه إلى أبعد المواطن، إذا أعوزه الرزق (أعجزه إدراك القوت وعزَّ عليه الظَّفَرُ به).

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

في سبيل القوت

وهو يستهين ببُعد الشُّقَّةِ (يستخف مستهزئًا بالمسافات الشاسعة لا يبالي ببعدها)، مجتازًا مئات الأميال — بل آلافها — ليظفر بما يبتغيه من القوت (ليفوز بما يطلبه من الطعام)، مثابرًا (مواظبًا مداومًا) طول يومه طائرًا، لا يهدأ ولا يقرُّ (لا يثبث ولا يسكن) له قرار.

طعامه

وهو يقتات بما يصادفه في طيرانه في الجو من أسراب البعوض والذباب، وما إلى ذلك من الحشرات الأخرى الهائمة في أجواز الفضاء، أعني: الذاهبة في طبقات الجو إلى غير غاية. ومن عادته أن يفتح فاه — وهو طائر — حتى إذا امتلأ فاه (فمه) بالحشرات أطبقه عليها تَوًّا (حالا)، عائداً إلى عُشِّه، لِيَعْدُوَ بها أفراخه الصغار.

طيرانه

وهو دائم الطيران في الجو — بلا انقطاع — في خطوط متعرجة ملتوية، منسابة في أجواز الفضاء (ذاهبًا كل مذهب في طبقات الهواء)، صاعدًا هابطًا، مرتفعًا منخفضًا، يمينة ويسرة، في انحدار وارتفاع، لا يكل ولا يمل.

على وجه الماء

وهو يداعب (يلعب) الهواء والماء كليهما بجناحيه، ويطو له أن يرفرف على سطح الماء مزهواً (معجباً) فرحان، ثم يغطس في رشاقة عجيبة، وخفة نادرة. فإذا أتم استحمامه راح يطفُرُ (يقفز مرتفعًا) على وجه الماء دانيًا (مقتربًا) من صفحته ضاربًا عليها برشاش خفيف. وربما حَسَا الماء (تناوله بمنقاره) في أثناء طيرانه.

الْخُطَّافُ

فتك العواصف

ولعل أخشى ما يخشاه ويرتاع له: عصف الرياح (شدتها) وهبوب الزوابع، فهو – لضآلة جسمه – عاجز عن مقاومتها، وكثيراً ما يذهب ضحية لها. وربما فتكت العواصف بجماعات كاملة من أسرابه.

مسكنه

ويتخذ عشه بالقرب من المساكن، في بعض الغرف الخربة العالية من المنازل المهجورة، أو في أعلى المداخل، أو تحت الجسور، وربما اتخذه في بعض الأشجار. وهو يجمع له ما تناثر من القش، وما تفتت من الأغصان، وما جف من الحشائش، بعد أن يختارها بمقادير متناسبة، ثم يخلطها بلعابه اللزج، ليبتني بها عشه، بعد أن يكسبها قوة، فلا تلبث أن تستمسك وتقوى. فإذا تم له ذلك، راح يُؤنثُ عُشَّهُ بما تناثر من الورق والدريس والشعر، وما إلى ذلك مما يجمعه بمنقاره ومخالبه.

صوته

ولللخفاف صفير، حلو الجرس (عذب الصوت)، عميق التأثير في نفس سامعه، مستطيل النغمة. وليس متقطعاً كصفير العصفور، وكلاهما يختلف عن صوت الحمامة حين تهدل (حين تقرقر) بصوت لين ترتاح الأذان لسامعه، وتهشُّ النفوس لترداده (تسرُّ بتكراره مرة بعد أخرى).

وتختلف أصوات الطيور باختلاف أجناسها – حسناً وقبحاً – من الضد إلى الضد، حتى تبلغ المسافة أقصاها (نهايتها) إذا قابلنا بين نعيب البوم والغربان، وشدو البلابل والكروان.

أُمُّ سِنْدٍ وَأُمُّ هِنْدٍ

ذيله وجناحه

وكما يختلف صفيّر الخطاف عن صفيّر العصفور، يختلف ذيلاهما كذلك. فذيل العصفور أقصر من جسمه، ولكن ذيل الخطاف يكاد يساوي جسمه في الطول، ثم ينتهي بريشتين طويلتين على جانبيه. والخطاف إذا وقف، اقترب جناحه من نهاية ذيله المتشعب.

على وجه الأرض

وقلما يُرى الخطاف سائراً على وجه الأرض، لضعف رجليه، وعجز مخليبه عن المشي. على حين يُرى العصفور والحمامة، يسير كل منهما على قدميه حيناً، ويطير كلاهما في الجو مرفقاً بجناحيه حيناً آخر، لقدرته على المشي وال طيران جميعاً. ويمتاز العصفور والحمامة بأن كليهما لا يتركنا - في فصل الشتاء - كما يتركنا الخطاف.

مرحبا بكم علي منصة مراجعة



COLLEGE.MOURAJAA.COM



NEWS.MOURAJAA.COM

